خطاب الرسول محمد ﷺ في سورة الكهف

(دراسة تفسيرية موضوعية)

أ.م.د. عمار عبد الكريم عبد المجيد

كلية الآداب - الجامعة الإسلامية

المقدمة

هذا بحث يختص بالنبي محمد ﷺ في سورة الكهف، يهدف إلى خدمة كتاب الله العزيز، كما يهدف إلى إبراز أهم الصور التي تصوّر سيدنا محمداً رسول الله في هذه السورة الكريمة.

وقد اقتضت طبيعة البحث إلى أن يقسم على النحو الآتي:

القسم الأول:- يتناول سورة الكهف من حيث نزولها، وكونها مكية، أو مدنية، والمرحلة التي نزلت فيها، وما ورد في فضائلها، وما كان من أجر تاليها، ثم عرض لأهم المحاور التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة، مع تعريف بكل محور من هذه المحاور.

القسم الثاني:- عرض لأنواع الخطاب القرآني، وميزة كل نوع من أنواع الخطاب مع التمثيل لهذه الأنواع.

القسم الثالث:- ويشتمل على أهم النقاط التي كان عليها خطاب رسول الله ﷺ في هذه السورة المباركة.

القسم الأول
بين يدي سورة الكهف

تسمى سورة الكهف، وسورة أصحاب الكهف، وعدد آياتها مائة وعشر آيات[1].

ومما يميزها عن غيرها أنها اشتملت على عدة قصص، كما اشتملت على بعض مشاهد القيامة، وأما ما يجمع بين محاور السورة كلها فهو ((تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر))[2].

فضائل سورة الكهف

قد ورد في فضلها أحاديث نبوية شريفة، ومن ذلك:

1- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: في بني إسرائيل (أي سورة الإسراء) والكهف، ومريم، **[إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي]**[3].

2- عن البراء ﷺ قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة، أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **[اقرأ فلان[□] فإنها السكينة، تنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن]**[5].

3- عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: **[من حفظ عشر آيات، من أول سورة الكهف عصم من الدجّال]** وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ قال: **[من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من فتنة الدجال]**[6].

4- عن أنس الجهني ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **[من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين السماء والأرض]**[7].

5- عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: **[من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين]**[8]. ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نستعرض كل ما ورد في فضل هذه السورة الكريمة، أو أغلبه، وربما يكون فيما ذكرنا هنا كافٍ للاستدلال لما لهذه السورة من مكانة في كتاب الله العزيز.

وقد قيل فيما قيل عن هذه السورة: (أنها السورة القرآنية الفريدة، التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها، فيما يتصل بفتن العهد الأخير، التي يتزعمها الدجال، ويتولى كبرها، ويحمل رايتها، وتحتوي على أكبر مقدار من الترّياق الذي يدفع سموم الدجال ويبرئ منها..)[9].

وقت نزولها، وسببه

السورة مكية، وقد اشتملت كتب التفسير، والسِّير، وكتب أسباب النزول على سبب نزولها، فقد روى ابن هشام في السيرة: أنه لما اشتدت المعركة بين رسول اللهﷺ وقريش استعانت قريش باليهود، فقالت لهم الأخيرة: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل. اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول. واسألوه عن الرجل الطواف الذي طاف المشرق والمغرب. واسألوه عن الروح[10].

هذه هي الأمور الثلاثة التي طلبت يهود من قريش أن تسأل عنها رسول الله ﷺ.

فكان أن أخبر القرآن الكريم عن هذه الأمور في سورة الكهف: فقص قصة ذي القرنين، وقصة فتية الكهف، وقال لهم عن الروح ﴿قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً﴾[11] وكان عليهم أن يؤمنوا بعد إن أجابهم فمنهم من آمن، ومنهم من لم يؤمن[12].

أهم محاور سورة الكهف

يمكن لدارس سورة الكهف أن يلحظ جملة محاور تنتظم النص القرآني، ومن هذه المحاور:

المحور الأول: الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإيمان بكتبه

تبدو هذه السمة في بدايات سورة الكهف، التي وصفت القرآن الكريم بأنه الكتاب القيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولما كانت السورة مكية؛ فلذلك أكدت على توحيد الله تعالى، والإيمان به، وبأنه أنزل كتابه على عبده ونبيه محمد ﷺ وأن على الناس أن يؤمنوا بهذا الكتاب الكريم، وبالنبي محمد ﷺ فالسورة إذن تبدأ ((بيان وصف القرآن الكريم بأنه قيم مستقيم، لا اختلاف فيه ولا تناقض في لفظه ومعناه، وأنه جاء للتبشير والإنذار))[13].

وقد بدأت السورة بالحمد. والحمد: ((يكون على نعمة عامة لك ولغيرك فرقعة الحمد، أوسع من رقعة الشكر... فالمراد الحمد المطلق الكامل لله.. وجعل هذا الدين مستقيماً لا عوج فيه..))[14].

والتوحيد أساس العقيدة الإسلامية، وكل ما يناقض توحيده تعالى يعدّ أمراً كبيراً في عقيدة الإسلام، ولذلك قال القرآن الكريم هنا، فيمن نسب إلى الله تعالى الأولاد قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾[15] أي ((ما أكبرها من كلمة، وصوّر فظاعة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لم يكفهم خطورها في نفوسهم، وترددها في صدورهم، حتى تلفظوا بها..))[16].

ولفظاعة ادعاء الولد لله تعالى، فقد عبرت هذه الكلمة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عبرت عن ضخامة هذا الادعاء، وبشاعته فـ﴿كَبُرَتْ﴾ لتجبه السامع بالضخامة، والفظاعة وتملأ الجو

بهما، وتشارك لفظة (بأفواههم) بجرسها الخاص في تكبير هذه الكلمة، فالناطق بها يفتح فاه في معظمها الأول، بما فيه من مدّ (أفوا...)[17].

ويقف الباحثون عند هذه السورة ليقولوا لنا، إن قريشاً وقفت في وجه التوحيد، وحشدت كل قواها من أجل صدّ محمد ﷺ عن نشر دعوة الإسلام، القائمة على نبذ عبادة الأصنام، ولذلك فبدء سورة الكهف يشير فيما يشير إلى جملة أمور منها:

1- رغبة قريش في إثارة الشبهات ضد رسول الله ﷺ وفي استخدام كل ما يؤدي إلى الوقوف بوجهه.

2- إن اليهود هم أخطر الناس على الإسلام، ولذلك استعانت بهم قريش، في صد دعوة الإسلام، وهذا يكشف عن عمق العداوة لرسول الله ﷺ [18].

وخلاصة هذا المحور أنه إشارة إلى توحيد الله تعالى، وأن الدعوة إلى التوحيد هي من أسمى ما يجب أن يعيره الدعاة من أهمية، وأن أهل الكهف ضحوا من أجل التوحيد.

المحور الثاني: مكانة الإيمان

تتجلى هذه السمة -سمة الإيمان- في سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[19].

وقد وقف المفسرون، عند إيمان الشباب وإيمان الشيوخ، وما قيل في الشباب وإيمانهم (أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا، وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعـــامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل)[20]، وليس من السهل أن يفارق الإنســـان أهله وعشيرته وموطن صباه، وموئل عيشه، وهنا تتجلى مكانة الإيمان، حين آثر هؤلاء القوم الإيمان، والفرار بدينهم على كل ملذات الحياة وإغراءاتها، وهنا كان توفيق الله تعالى حين صبّرهم فقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[21]، فالآية تشير إلى أن الله تعالى يقول: (وصبّرناهم على مخالفة قومهم، ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من

العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم، وسادتهم)[22].

وهنا نستطيع أن نلمح ميزات الإيمان في هذه الفئة، وتتمثل ميزات الإيمان هذه بالتضحية بالدنيا وما فيها من أجل العقيدة التي يحملونها، وقد بدأت التضحية باعتزاله ذلك المجتمع الذي لا يحمل من صفات الإيمان والتقوى شيئاً، فالإيمان يتّقد في نفوسهم، وشعلته تنير الطريق أمامهم، بهجر الكفر بكل مظاهره، وأشكاله، وهكذا الإيمان عند كل دعاته، وهؤلاء الأنبياء جميعاً شرعوا بالفرار من الكفر ومظاهره، وأشكاله، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾[23]، والأمثلة كثيرة في ذلك. وقد يقول القائل: لمَ لم يواجهوا الناس بعقيدتهم هذه، ولماذا فرّوا بدينهم، أما كان عليهم أن يقفوا بوجه الكفر وينافحوا تحت راية الحق، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً؟

والجواب قد يكون، أنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة، ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى، في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في ذلك الوسط، فهم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية، والأرجح أن أمرهم قد كشف فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة[24].

وهؤلاء الفتية (فيهم فتوة الشباب، وفتوة الإيمان، وهي جماع مكارم الأخلاق والابتعاد عن محارم الله تعالى، وإطاعة أوامره، ففيهم فتوة الجسم، وفتوة الإيمان والسلوك القويم، وأن الاستقامة تسير بالمكلف في الخط المستقيم)[25].

ولقد ربط الله على قلوبهم، أي: (ثبتناها، وقويناها، وجعلنا لها رباطاً لأن جميع قومهم على ضدهم، ومخالفة القوم تحتاج إلى تثبيت، ولا سيما أنهم شباب، والشاب ربما يؤثر فيه أبوه، ويقول: له أكفر، ولكن الله ربط على قلوبهم فثبتهم..)[26]، وذلك بما قذف في قلوبهم من المعارف، وشرح لهم صدورهم من المواهب التي حملتهم على الثبات، والزهد في الدنيا، والانقطاع إلى الله جل جلاله[27].

من كل ما تقدم يمكن أن نقول: أن مكانة الإيمان عظيمة، وقصة الكهف في أساسها، قصة الصراع بين الإيمان والمادية، وهي قصة الصراع بين النظرتين،

والعقيدتين، والنفسيتين، وسورة الكهف سورة مكية، وهذا الضرب من السور يؤكد الإيمان بالله تعالى، وتوحيده فلذلك يمكننا أن نقول أن سورة الكهف بكل ما ورد فيها من قصص، أراد سبحانه أن يؤكد فيها حقيقة الإيمان، وأنه إذا ما ثبتت في النفس، وكان لها جذور عميقة، يستطيع الفرد المسلم أن يقيم في نفسه دولة الإيمان والحق التي من أجلها خلق الله الإنسان[28]. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[29].

المحور الثالث: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، وذكر مشاهد القيامة، وموقف الحساب والمخاصمة

ويتمثل ذلك بأمرين: بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة، والنعيم في الآخرة، وبشارة الكفار بالعذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة.

فمما وردَّ في شأن المؤمنين ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[30] فهؤلاء المؤمنون الذين آمنوا بالحق، وصدقوا به يبشرهم بأن لهم أجراً حسناً (مثوبة عند الله جميلة، ماكثين في ثوابهم عند الله، وهم في الجنة خالدين أبداً. وذكر عن المؤمنين المبشَّرين أنهم قدموا العمل الصالح مع الإيمان، وهذا يفيد أنه لابد من عمل صالح، ولهذا قيل لبعض السلف أليس مفتاح الجنة **(لا إله إلا الله)**، فمن أتى به فتح الله له، قال: بلى ولكن أيفتح المفتاح بلا أسنان![31]، فالأجر في الآخرة يتحقق للإنسان المؤمن بحصول أمرين هما: الإيمان، والعمل الصالح)[32].

وقد بين المفسرون معنى الصالحات التي يكافأ عليها المؤمن في الآخرة فهي: (ما أمر به خالصاً له، وذلك من أسنان مفتاح الإيمان، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو النعيم حال كونهم ماكثين فيه أبداً..)[33].

أما الجانب الآخر الذي يهدف إلى الإيمان باليوم الآخر، فيتمثل في الترهيب من عذاب الآخرة، وتصوير مشاهد من ذلك العذاب، فمما ورد في ذكر عذاب الآخرة وترهيبهم منه قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾[34] وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[35] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا

﴿لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[36]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تحذر الناس من اليوم الآخر، وهذه الآيات التي تحذر الإنسان العاصي والخارج عن منهج الله وسنته ذكرت نماذج منهم المشرك الذي قال: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، ومنهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله، وهناك المجرمون حين يرون أعمالهم، إنها الحسرة المتمثلة بقولهم: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[37] وهؤلاء المشركون والمجرمون كما يصورهم القرآن الكريم، تراهم ﴿مُشْفِقِينَ﴾ مما هم فيه، فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق، وهم خائفون من العاقبة، ضاقت صدورهم بهذا الكتاب، الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه صغيرة ولا كبيرة ويقولون ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[38].

واشتملت سورة الكهف على مشاهد يوم القيامة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۞ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[39] ففي المشهد يتجلى الهول المادي في تسيير الجبال الراسية، وبروز الأرض منها عارية، فهي في مشهد سالف، القاع صفصف لا عوج فيها ولا نتوء، ثم يلي ذلك مشهد الحشر الجامع، الذي لا يخلف وراءه أحداً، وعرض الجمع صفاً على ربك، وهنا يجابهون بما سلف منهم من تكذيب. فنلمح الخزي على الوجوه، والذل في الملامح ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جئتم أيها القوم، وكنتم تزعمون أن لن تجيئوا أبداً بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً، فماذا ترون الآن، وقد كان ما كان[40].

وتقف عند مشهد آخر، من مشاهد يوم القيامة يقول ﷻ فيه ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ۞ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[41]، فالله جل جلاله يخبر عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، تقريعاً لهم وتوبيخاً، نادوا شركائي، في دار الدنيا، أدعوهم اليوم لينقذوكم مما أنتم

فيه، هذه المواجهة يوم القيامة مشهد مكرر في عمومه، ولكن الجديد هنا أن يقال لهم ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ فينسون أنهم في العالم الآخر، وأن هؤلاء الشركاء لا يملكون لهم نفعاً، ويدفعهم الهول لأن ينادوهم فعلاً ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لينقذوهم مما هم فيه[42]. وبعد فهذا مشهد من مشاهد يوم القيامة، تعرض له هذه السورة المباركة، وبذلك يتجلى أن الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر محور من المحاور التي اشتملت عليه سورة الكهف.

وبعد فكل هذه الأسس والدعوة إليها تشغل حيزاً واضحاً من مقاطع السورة، وتشكل محاور تدور أحداث السورة ومقاطعها حولها كما ذكرتُ بشكل مختصر وبإيجاز، تريد تثبيت الفئة المؤمنة وإعطاءه الترياق الشافي أمام الفتن، فسورة الكهف عرضت أهم الأمور التي تأتي الفتنة من قبلها، ففي قصة أصحاب الكهف ذكرت فتنة السلطان، وفي قصة صاحب الجنتين عرضت فتنة المال والرجال، وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام عرضت فتنة العلم، وفي قصة ذي القرنين عرضت فتنة الأسباب، (العلم التجريبي التطبيقي) وفي كل ذلك عرضت السورة حقائق الأمور في ضوء المبادئ التي ذكرتها السورة في فاتحتها وقررتها في خاتمتها[43].

القسم الثاني
أنواع الخطاب القرآني

المتتبع لكتاب الله العزيز يجد في أنواعاً من الخطاب، وكل نوع من هذه الأنواع يتسم بميزات يفترق فيها عن غيره، ويمكن أن نتلمس الأنواع الآتية:

1- **خطاب الناس:** ويمكن أن نلحظ هذا الضرب من الخطاب في الآيات المكية، إذ إن القارئ لهذا النمط يجد أنه لا يخص فئة معينة من الناس، إنما هي للناس كل الناس، دون استثناء صنف أو طائفة منهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[44].

(وظاهر في هذا النص أي مضمونه يعم الناس جميعاً لأنه دعوة إلى الإيمان بالقضية الأولى من قضايا دعوة الرسول محمد ﷺ وهي الإيمان به رسولا من عند الله الذي لا إله إلا هو)[45]. وهذا النص يمثل النداء الأول للناس جميعاً.

ومن هذا الضرب من النداء ما جاء في سورة فاطر ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[46]. والخطاب للناس جميعاً يذكرهم بنعمته تعالى عليهم، ويقول لهم بصيغة الاستفهام: لا خالق غير الله يرزقكم، فهو الخالق الوحيد، وهو الذي يرزقكم.

ونتابع ما ورد في سورة فاطر ونقف عند الآيتين الخامسة والسادسة فيها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[47]. فالنداء هنا للناس جميعاً، إذ تدعوهم الآية إلى الالتزام بالنهج المستقيم والابتعاد عن إغراءات الدنيا، فهي زائلة بكل ما فيها.

وقد يغتر الناس بأموالهم التي رزقهم الله تعالى بها، فيذكرهم الله أنهم جميعاً فقراء إلى الله تعالى، وحاجتهم الدائمة إلى فضله فتقول لهم سورة فاطر ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۞ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[48].

ويطول بنا المقام حين نستعرض أكثر الآيات التي خاطبت الناس عامة والتي وردت في القرآن الكريم[49]، وحسبنا ما ضربنا من أمثلة على هذا النوع من أنواع الخطاب. ويمكن أن ننتقل إلى نوع آخر من أنواع الخطاب.

2- **خطاب المؤمنين:** وهذا الخطاب لا يشمل الناس كافة، إنما يختص بالمؤمنين وحدهم، (والمتتبع للنصوص القرآنية المصدرة بخطاب المؤمنين﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يلاحظ أن مضمون هذه النصوص يشتمل على معانٍ تخصّ الذين آمنوا، وما يؤمرون به،وما ينهون عنه، وما يحذرون منه، وما يوجهون له، وما يوصون به ونحو ذلك. ونداءات الله للذين آمنوا كثيرة جداً بلغت (89) نداءً، مصدرة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والذي يلفت النظر أنها جميعها مدنية، أوائلها ما جاء في سورة البقرة... وآخرها ما جاء في سورة التوبة)[50].

مثال ذلك قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[51].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[52]. وتستمر هذه الآيات في تبيان ما يحل للمؤمن أكله، وما يحرم عليه أكله، كما تشير إلى الحالات الاضطرارية التي يباح فيها أكل المحرم[53].

وآيات أخرى يوحّد فيها الخطاب للمؤمنين ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾[54]، والخطاب هنا للمؤمنين وهو من الأمور التشريعية التي تخص المنازعات، والحقوق بين أفراد المجتمع[55]. وما ذكرناه أمثلة مما ورد في القرآن الكريم، ومن سورة واحدة، ويطول بنا المقام لو أردنا أن نستعرض أغلب ما ورد، وحسبنا ما ذكرنا من أمثلة لننتقل إلى خطاب آخر.

3- **خطاب النبي ﷺ** (خطاب الله ﷻ في القرآن شامل للمؤمنين، ما لم يكن في النّص أو في غيره، ما يدلّ دلالة صريحة على الخصوصية، كوصال الصيام، وما يتعلق بشؤون الوحي أو الرسالة، وكالزيادة في تعدد الزوجات على الأربع، وكذلك كلُّ تربية موجهةٍ للرسول هي موجّهةٌ تبعاً لأمته، ولا سيما الدعاة وقادة الأمة)[56]. فخطاب المفرد في القرآن، هو خطاب لكل فرد يصلح للخطاب، وهو أسلوب من

أساليب التعميم الذي هو بمثابة النص على العموم وتأكيده بخلاف ألفاظ العموم فإنها تحتمل أن يراد بها الخصوص، وحين يراد بها العموم فيلاحظ أن توجيه الخطاب لكل فرد مكلف ضمن خطاب الجماعة[57].

فالقرآن الكريم خاطب محمداً ﷺ كما خاطب النبيﷺ قومه، ومن أمثلة خطاب الله تعالى نبيه ﷺ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[58]. والآية كما ترى تخاطب محمداً ﷺ، الذي كان يتألم أشد الألم حين كان يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى، والالتزام بالإسلام منهج حياة فيصدون عن هذه الدعوة، وحين ذلك يصيبه ما يصيبه من الأذى النفسي، والألم على تلك العقول التي لا تذعن إلى الحق، ولا تهتدي إلى سواء السبيل.

ومما ورد في هذه السور الكريمة، وفيه توجيه للأمة من خلال نبيهاﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۞ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[59].

ومن ذلك ما ورد في مطلع سورة طه قوله تعالى ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[60].

ومن الأمثلة التي جاء فيها خطاب للمفرد في سياق خطاب الله للرسول. والغرض تعميم الخطاب لكل مؤمن، قوله ﷻ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[61]، أي: فلا تعجبك أيها الرسول، أيها المؤمن كائناً من كنت أموال المنافقين ولا أولادهم، إنما يريد الله إمدادهم بها ضمن سنته في امتحان الناس المبين في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[62] ليتموا مدة امتحانهم بحرية دون وسائل إلْجاء أو إكْراه، مع تعذيبهم بها في الحياة الدنيا بألوان من العذاب، منها القلق والخوف والكد وغيرها، ولتزهق أنفسهم عند آجالهم وهم كافرون إذا لم يتوبوا بعد إمهالهم طوال مدّة حياتهم[63].

القسم الثالث
خطاب النبي ﷺ في السورة

وهو المحور الرئيس في هذه السورة المباركة، فقد خاطب الله تعالى نبيه الكريم هنا في مجموعة آيات كريمات، منها ما فيه التوجيه للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يواجه المشركين، ومنها ما كان جواباً عن سؤال، ومنها ما يتعلق بأمر تربوي، ومنها التسلية وإراحة ما حمل صدره ﷺ من ضيق وعنت، في مواجهة أهل العناد والكبرياء من مشركي قريش، وها نحن أولاء نقف عند أبرز هذه الخطابات، بحسب تسلسل الآيات الكريمة في هذه السورة المباركة معنوناً لأبرز ما ورد في الخطاب من معانٍ:

الخطاب الأول: شفقة الرسول على الناس وحرصه على هداهم

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[64].

وهنا كان النبي عليه الصلاة والسلام، يدعو قومه ليؤمنوا بهذا الدين، وينأوا بأنفسهم عن عبادة الأصنام، فحين يصرون على نبذ هذا الدين، ويركب رؤوسهم العناد، يصيب النبي عليه الصلاة والسلام، ما يصيبه من أذى النفس لهؤلاء القوم. كان يقول لهم **قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**. فيجيبونه: (بأعل هبل)، و(أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً).

هذا الألم النفسي كان يأخذ منه ﷺ كل مأخذ، وهنا تقول له الآية الكريمة ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ...﴾، فيقول تعالى: مسلياً لرسوله ﷺ في حزنه على المشركين في تركهم الإيمان، وبعدهم عنه، كما قال تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[65]، وقال ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[66]، وقال ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[67]، فالله جل جلاله شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقته أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويجدع نفسه وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم[68]. وهنا يأمره جلا وعلا قائلاً له: لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها، وهذه الدنيا دار فانية زائلة مزينة بزينة

زائلة[69]. وكان على أولئك المشركين أن يؤمنوا (إذ أن نضوج الدليل ووضوح الصدق، وقوة الإعجاز، يجعلك تتوقع إيماناً، فجاء إعراضاً وتولياً عن الحق..)[70].

وفي هذه الآية (تحذير الرسول ﷺ من الاغتنام، والحزن على عدم إيمان من لم يؤمنوا من قومه، وذلك في معنى التسلية لقلة الاكتراث بهم)[71].

والإيمان يدخله تعالى في نفوس الناس، حين يهديه الله تعالى إلى النجدين فيختار الإنسان درب الإيمان ويوفقه إلى الطريق المستقيم، ويثبت قلبه بعد أن اختار هذا الطريق، ولذلك يوجه نبيه الكريم ﷺ بأن لا يهلك نفسه بسبب عدم إيمانهم (ثم بين علة إرشاده إلى الإعراض عنهم. بغير ما يقدر عليه، من التبليغ للبشارة والنذارة، بأنهم لم يخرجوا عن مراده سبحانه، وأن الإيمان لا يقدر على إدخاله قلوبهم غيره..)[72]، وفي هذا كله درسٌ للدعاة إلى الحق، وإلى المنهج القويم، أن عليهم أن يدعو الناس إلى الحق، وأن يسلكوا السبل الممكنة إلى ذلك، بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وحين يؤدون ما عليهم يبقى التوفيق بيد الله، وليس عليهم أن يحزنوا، أو يحدث لهم ضيق النفس، والله تعالى يقول لنبيه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[73].

الخطاب الثاني: الأخبار عن أهل الكهف

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا . .﴾[74].

كان السؤال من قريش للنبي عليه الصلاة والسلام، عن أهل الكهف، من أجل أن يحرجوه، فإنهم أرسلوا رجلين منهم هما: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، ليسألوهم عن صدق رسول الله ﷺ وما خبره عندهم، وما ورد في كتبهم.. فلما ذهبا إلى اليهود بالمدينة، قالوا: إن أردتم معرفة صدق (محمد)، فسلوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم فهو صادق، اسألوه: ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر الأول مذاهب عجيبة؟ وما قصة الرجل الطواف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً؟ وسلوه عن الروح ما هو؟[75].

ومضمون الخطاب الموجه للرسول ﷺ هو إن سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة، يريدون إحراجك بها فدعْك من كلامهم، ودعك من

سوء نيتهم، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجيبة الوحيدة لدنيا، فالعجائب عندنا كثيرة، وهذه واحدة منها[76].

فالله تعالى قد أنبأ نبيه ﷺ عن قصة (شباب آمنوا بالله تبارك وتعالى ودعوا إلى الله رغم أن القرية التي عاشوا فيها كانت محكومة من ملك ظالم، فعرضوا إسلامهم على الناس، ورفض الناس دعوتهم)[77]، وقد خاطب القرآن الكريم نبيه ﷺ في هذه السورة المكية، في (الفترة المكية التي عانى فيها المسلمون من الكافرين، أشد العنت ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة يوسف، وموسى عليهما السلام، وأصحاب الكهف، وكلها تهدف إلى تسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين والحث على الصبر والتنبيه أن العاقبة للمتقين)[78].

ويبدو أن المشركين قد فقدوا الميزان القويم الذي يدركون به الحق من الباطل، والصدق من الكذب، فسبب النزول كشف أن الدافع لقريش لإرسال وفد إلى يهود المدينة لتحقق من صدق محمد ﷺ، وهو ضياع الميزان القويم الذي يدركون به الحق من الباطل، والصدق من الكذب، والصحيح من الزيف[79].فالقرآن أراد أن يقول لهؤلاء القوم، من خلال نبيه ﷺ (فليست قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة أعجب من حال الدنيا، فإن زينة الأرض وعجائبها أعظم وأبدع.. فآياتنا كلها عجيبة)[80].

وما زال الخطاب لمحمد ﷺ في قصة أصحاب الكهف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[81]. وتبدأ الآيات هذه مخاطبةً المصطفى ﷺ بقوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهذا الخطاب يدل على أن الله تعالى يتولى بنفسه أخبار رسول عليه الصلاة والسلام، بذلك وفي هذا نصر له وتأييد، وفي هذا النص، وصف التلاوة الربانية بالحق دعوة لنا إلى تصديق كل ما ورد فيها، واعتقاد صحته ووجوده. وإن كانت بعض الجزئيات غير خاضعة للمقاييس المادية، لأن العقل المؤمن يُثبت لله القدرة القادرة، والإرادة النافذة، والمشيئة المطلقة، التي تغير ما شاءت من نواميس الكون وسننه، وأن وصف التلاوة بالحق دعوة لنا إلى الاكتفاء بالتلاوة الربانية الصادقة الحقة، وإلى عدم الذهاب إلى المصادر الأخرى التي حوت الكثير من الإسرائيليات والأساطير[82].

وربما يخطر في الذهن، ما السبب في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾؟ ولعل ذلك يعود إلى أنه (لما اقتضى قوله ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[83] إن في نبأ أهل الكهف تخرصات، ورجماً بالغيب، آثار ذلك في النفس تطلعاً إلى معرفة الصدق في أمرهم، من أصل وجود القصة، إلى تفاصيلها، من مُخبر لا يشك في صدق خبره، كانت جملة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ استئنافاً بيانياً، لجملة ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[84].

ويهمنا هنا أن نقف في خطاب النبي ﷺ في لفظ ﴿بِالْحَقِّ﴾، لأنها تمثل الفارق بين المنهجين، منهج الله تعالى في القصص القرآني القائم على الصدق وجمال العرض، والنأي عن التفصيلات التي لا تعطي جديداً، وبين منهج غيره القائم على الأساطير والإسرائيليات، وما ليس له صلة بالحق، (فقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: مصاحباً للحق، لا يغادر شيئاً من الصدق، ولا يبعد، ثم أخذ سبحانه يقص ذلك القصص الذي فيه أول شيء على القدرة بعامة، والبعث بخاصة..)[85].

ويستمر الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، قائلاً له ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[86] والآية تقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: لو كنت يا محمد مشاهداً هؤلاء القوم، لما ظننت أنهم نيام، بل لحسبتهم أيقاظاً؛ لأن ظاهرهم لا يدل على أمارة من أمارات النوم، والقرآن الكريم يقول للنبي ﷺ (لو أتيح لك النظر إليهم لخيّل إليك أنهم أيقاظ، غير نائمين، ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حالة اليقظة، وعلى هيأتها ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأن يقلبهم في نومهم مرة ناحية اليمين، وأخرى ناحية الشمال، لتظل أجسامهم على حالها لا تأكلها الأرض)[87]. أخبار أهل الكهف نقلها القرآن الكريم إلى نبيه ﷺ وهو رجل أمي، فنقل هذه القصة على ذلك المجتمع دليل من دلائل صدق نبوته ﷺ.

الخطاب الثالث: النهي عن المماراة

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[88].

توجه الخطاب في هذا النص الكريم إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام قائلاً له ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾.. (والمراء: المجادلة برد ما يقوله الخصم، والمراء منهي عنه، لأنه يجر إلى قول الباطل، ومجاراة الخصم، وكل مراء يجعل كل متكلم متعصباً لما يقول؛ لأنه يستمسك برؤيته هو من غير إلتفات إلى رؤية غيره، وقد تكون هي الحق، فهي عماية عن النظر الكامل، عبر فيه الأمر من كل وجوهه، وسمّى المراء الظاهر مراء من قبيل المشاكلة اللفظية...)[89].

وليس الجدل مع المشركين بالحسنى من المراء ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[90]، كما خاطب الله تعالى نبيه، آمراً إياه بعدم أخذ معرفته، أو فتواه منهم، والاستفتاء: معرفة الفتوى، والحكم الصادق، وقد قال له القرآن الكريم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

على أن المفسرين وقفوا عند المراء، والاستفتاء فما ورد في المماراة الظاهرة أي: المراء السهل اللين، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، أما الاستفتاء ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنهم لا علم لهم بذلك، إلا ما يقولون من تلقاء أنفسهم رجماً، بالغيب أي من غير استناد إلى كلام معصوم[91].

ثم إن هذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه، والعبرة في أمرهم حاصل بالقليل، وبالكثير، لذلك يوجه القرآن الكريم النبي محمداً ﷺ إلى ترك الجدل في هذه القضية، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية في غير ما يفيد)[92]، وقد أجازت الآية المراء الظاهر (هو الذي لا سبيل إلى إنكاره، ولا يطول الخوض فيه، وذلك مثل قوله تعالى ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، فإن هذا مما لا سبيل إلى إنكاره لوضوح حجته، وما وراء ذلك محتاج إلى حجة، فلا ينبغي الاشتغال به لقلة جدواه)[93] (وقد أبهمهم الله تعالى، أبهمهم زماناً، وأبهمهم مكاناً، وأبهمهم عدداً، وأبهمهم أشخاصاً، ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدنيا كلها، لا يرتبط بزمان ولا مكان، ولا أشخاص، فحمل راية الحق والقيام به أمر واجب وشائع في الزمان، والمكان، والأشخاص، وهذا هو المغزى من القصة)[94].

الخطاب إذن للنبي عليه الصلاة والسلام، متعلق في ترك المماراة التي لا جدوى منها، إلا ما كان ظاهراً، وكذلك عدم استفتاء أحد من أولئك الذين لم يؤمنوا برسالته ﷺ لمعرفة الصدق والحكم الصائب، لأنهم أبعد ما يكونون عن ذلك.

الخطاب الرابع: ربط الأمور بمشيئة الله وذكر الله بعد النسيان

ويتمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[95].

والقول للشيء إني فاعل ذلك غدا، يرتبط بسبب النزول، وقد ذكر لنا المفسرون فيما ذكروا (أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود المدينة، فقالوا لهم سلوهم عن محمد ﷺ وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا، من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار اليهود، عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل توراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم سلوه عن ثلاث، فأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول، تروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول مذاهب عجيبة، وما قصة الرجل الطواف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد... فسألوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غداً عما سألتم، ولم يستثن... فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة... حتى جاء جبريل عليه السلام من الله ﷻ، بسورة الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف وقوله ﷻ يسألونك عن الروح...[96].

أي: أن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً من القول عن المستقبل دون ربط ذلك بمشيئته تعالى، وفي هذه الآية توجيه من الله تعالى لنبيه ﷺ، وتأديب للمؤمن ولأمة الإسلام عامة (لكي لا يفتات إنسان على الله تعالى، فيتوهم أنه قادر مسيطر على ما يفعل، وأنه

يفعل ما يريد شاءه، أو لم يشأه سبحانه، وهو المالك لكل شيء، الذي يشاء ويختار وحده، ولا خيرة لغيره في أمر خيرة مطلقة، إنما هي مقيدة دوماً في حدود ما يشاء الله.. وذكر الغد للإشارة إلى الإصرار فإن الغيب في علم الله وقدرته)[97].

والآية ليست في الإيمان، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين بأن يقول: إن شاء الله[98].

(وقد جمعت هذه الآية للنبي الكرامة من ثلاث جهات، الأولى: أنه أجاب سؤله فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف شأن الله مع المكابرين. والثانية: أنه علمه علماً عظيماً من آداب النبوة، والثالثة: أنه علمه ذلك بعد أن أجاب سؤله استئناساً لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك، قبل أن يجيبه كيلا يتوهم، أن النبي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله)[99].

ويتعلم المسلم في هذه الآيات من أدب القرآن الكريم، بأن بدأه بالإجابة عن أسئلته أولاً، وحين شعر النبي عليه الصلاة والسلام بالراحة، والطمأنينة، وأن الله أعطاه ما أراد شرعَ بتوجيهه بقوة ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ومعنى ذلك: لم يرد ﷺ أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه، بل أعطاه ما أراد وأجابه إلى ما طلب من مسألة أهل الكهف، ثم في النهاية ذكره بهذه المخالفة في أسلوب وعظ رقيق، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾[100]. ثم أمرته الآيات الكريمة بذكر ربه ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ويقول المفسرون: هنا أمره أن يذكر مشيئة ربه: (أي مشيئة ربك، فالكلام هنا على حذف المضاف، ذكر مشيئته تعالى على ما يدل عليه ما قيل، أن يقال: إن شاء الله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ ذلك حين نزلت إذا نسيت، أي: إذا فرّط منك نسيان ذلك ثم تذكرته)[101].

(وهذا التوجيه– مع العتاب– للنبي ﷺ موجَّهٌ لأُمَّته أيضاً، فعلى المسلم عندما يَعِدُ بفعل شيء في المستقبل أن يُعلِّقَهُ بمشيئة الله، سأفعل كذا يوم كذا إن شاء الله. فإن لم يشأ الله له أن يفعله، وعَجَز المسلم عن ذلك، يكون قد احتاط بالاستثناء، وسَلِمَ من اللوم والاعتراض، لأنَّ الله لم يشأ فِعلَه)[102].

والأمر الأخير في الآية الكريمة ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾. أي: يوفقني لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على

نبوتي[103]، من كل ما تقدم يتبين لنا إن الآيات الكريمة في هذا المحور اشتملت على أمور عدة منها: من أدب الإسلام الذي تعلمته الأمة ربط الأشياء بمشيئة الله تعالى، وذكر مشيئة الله تعالى، وذكره تعالى، والطلب منه تعالى، والتضرع إليه، وأن في الإرجاء برهاناً – بصورة غير مباشرة– لقريش على أن محمداً ليس له من أمر الوحي سوى التلقي والتبليغ[104].

الخطاب الخامس: الأمر بتلاوة القرآن الكريم والعمل بما فيه

ويتمثل ذلك في قوله تعالى ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[105]، والآية الكريمة تأمر النبي عليه الصلاة والسلام، بتلاوة كتاب الله تعالى، فهو الملجأ الذي ينبغي للمؤمن أن يلجأ إليه، فالله تعالى يقول آمراً رسوله ﷺ: بتلاوة كتابه العزيز، وإبلاغه إلى الناس، والمعنى أن أنت يا محمد إنْ لم تتلِ ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله...[106].

والآية تشتمل على أمرين، أحدهما: أن القول الفصل في أهل الكهف هو ما أنزله تعالى عليك في شأنهم، وعددهم، وماله صلة بذلك، فلا تتلقَّ الأخبار من مصادر أخرى غير القرآن الكريم، يقول القرطبي في الآية (هو من تمام قصة أصحاب الكهف؛ أي اتبع القرآن، فلا مبدل لكلمات الله، ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف)[107].

والأمر الآخر: هو الأمر بتلاوة القرآن الكريم، وتلاوة القرآن الكريم مأمور بها، بنص القرآن الكريم ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[108]، وقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام، على قارئ القرآن وقال لأحد أصحابه الكرام ﷺ لجمال قراءته **[لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود عليه السلام]**[109]، وكان ﷺ يستمع إلى قراءات الصحابة الكرام، وقال فيما قال عن قراءة ابن مسعود **[إني أحب أن أسمعه من غيري]**[110]، وكتب الحديث، وفضائل القرآن وعلومه، والمواعظ، فيها ما فيها من الدعوة إلى ذكر الله تعالى، وفي مقدمة الذكر: قراءة القرآن الكريم.

ومما ورد في ذلك قوله ﷺ **[ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة،**

وذكرهم الله فيمن عنده][111]، ومنه أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام **[الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران]**[112]، وما ذكرناه هُنا جزء مما ذُكر في قراءة القرآن وفضله وفضل متعلمه.

الخطابان السادس والسابع: الصبر مع الداعين إلى الله تعالى، وعدم الاغترار بزينة الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[113].

هنا يأمره الله تعالى بإلتزام الصبر والثبات، والمعاشرة أيها النبي مع أولئك الضعفاء، الذين يدعون، ويعبدون لربهم جميع الأوقات، في الصباح والمساء، يريدون بعبادتهم رضا الله وطاعته، ولا تصرف عيناك النظر عنهم إلى غيرهم ممن غرَّتهم الدنيا، تقصد بتركهم مجالسة العظماء، والأغنياء الذين تتزين بهم الدنيا، ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن القرآن وذكر الله، وآثر هواه على الحق، فاختار الشرك على التوحيد، وتجاوز حد الاعتدال، والفرط، والأمر الضائع الذي لا منفعة فيه[114]. وسبب نزولها أنها نزلت في جماعة من أشراف قريش طلبوا من النبي ﷺ تنحية الفقراء من أصحابه من مجلسه حتى يتبعوه، أو يخصصهم بمجلس دونهم[115].

وبذلك يتجلى توجيه المؤمنين: أن عليهم الصبر من أجل نشر دين الله تعالى، وأن عليهم أن يكونوا مع فقراء الأمة المؤمنين بهذا الدين الجديد، وأن ينالوا من الدنيا ما لا يؤثر في عيش الآخرة، لأن شعار الإسلام (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة)، وأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: إنّ هناك طريقين، طريق الحق، وطريق الباطل، لقد تبين لكم طريق الحق كما تبين لكم طريق الباطل، وأنتم أحرار في الاختيار، ولكن تذكروا! إن تفضيل الثاني على الأول يجعلكم تنتظرون ناراً ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[116]. وقد ربطت الآيات الكريمات بين الصبر على مصاحبة الضعفاء، والفقراء، وعدم الاهتمام بالدنيا، وأن العاقبة هي الأساس ربطت بينها وبين

صاحب الجنتين، فقالت الآية الكريمة ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[117].

تأتي هذه القصة في سياق السورة فالكفار لما افتخروا بأموالهم، وأنصارهم على فقراء المسلمين، بيَّن الله تعالى: أنّ ذلك مما لا يوجب الافتخار، لاحتمال أن يصير الغني فقيراً، والفقير غنياً، وأما الذي تجبُ المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المسلمين، وبين ذلك بضرب هذا المثل؛ فقال﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ أي: مثل حال الكافرين والمؤمنين كحال رجلين، وكانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافرٌ، والآخر مؤمنٌ[118].

فالكافر كان غنياً، وقد أغرته بساتينه، وأطيانه، ولكن الله تعالى أراد أن يعطيه درساً في النعمة والثراء، وكيفية التصرف بهما، فالذي قاله الرجل﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[119]، المال جعله يفقد أساسين، نعمُ الله هو يعطيها، وهو ينزعها، وليس لأحد حق في أن ينسبها لنفسه فيقول: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

والأمر الآخر: نسيان الآخرة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾.

أجل أراد الله أن يعطيه درساً في العقيدة ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾[120] (فأهلك الله ثمار ذلك الكافر بآفة سماوية، فأصبح يقلب كفيه ظهراً لبطن، تحسراً وندماً، على ما أنفق على عمارتها وإصلاحها من مال، وأضحت تلك الجنة خربة ساقطة على دعائمها المنصوبة للكروم)[121].

فالقصة تبين إن الاغترار بزينة الحياة الدنيا يؤدي إلى الكفر، كما تبين جهل من يتصور أن عطاء الله الحياة الدنيا علامة كرامة دائماً، قد يكون الأمر كذلك، وقد لا يكون، وفي خاتمة القصة إذ تصبح الجنة أرضاً بيضاء لا نبات فيها، تذكير بالنهاية الكلية للدنيا كلها، وللأرض كلها يوم القيامة. وندم صاحب الجنة على هذا المقام أقل بكثير من الندم يوم القيامة، فالمثل إذن يخدم سياق السورة، إذ يعرض فشل إنسان في الاختبار بتزيين الحياة الدنيا، ونجاح الإنسان[122].

الخطاب الثامن: متاع الدنيا، وموقف المسلم منه

وفي ذلك يقول جل جلاله ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[123].

يقول القرآن الكريم: أضرب يا محمد ﷺ لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم، وأنصارهم على فقراء المسلمين، مثل الحياة الدنيا في زوالها، وانقضائها، كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر، والبهية والنور، والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح هشيماً يابساً تفرقه الرياح، وتطرحه ذات اليمين، وذات الشمال فحال الدنيا كذلك[124]، فصاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف في لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته، وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته، وماله، وانفرد بصالح أو سيء أعماله. هنالك يعضّ الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العودة إلى الدنيا لا يستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات. فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري إنك قد مِتِّ، ولا بد أن تموتي، فأي الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخزف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم، وظلها ظليل، وفيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه[125].

الخطاب التاسع: قصة ذي القرنين، (الرجل الطّواف)

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[126].

يسألونك أيها النبي للاختبار عن قصة الملك الذي ملك الدنيا بأسرها وهو ذو القرنين، والسائل هم اليهود، قل: سأتلوا عليكم نبأ مفيداً، وخطاباً عجيباً. أي: سأتلوا عليكم

من أحواله، ما يتذكر فيه، وليكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم[127].

وقد وقف المؤرخون والمفسرون جميعاً أمام قصة ذي القرنين، وكثير منهم حاولوا بيان ما فيها من مبهمات، وتحديد تفصيلاتها التاريخية والواقعية. وأوردوا في ذلك أقوالاً كثيرة، غالبها مأخوذ من الإسرائيليات، وأخبار أهل الكتاب، وفيها ما فيها من أقاويل وأباطيل.

وقد نتج عن ذلك تشعُّبّ البحث في تفصيلات القصة، والاختلاف الشديد بين المؤرخين والمفسرين، وجدالهم ونقاشهم حولها[128].

وقد أجاد وأصاب سيد قطب رحمه الله في ظلاله إذ قال: إن النّص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه، أو مكانه، وهذه هي السِّمة المطردة في قصص القرآن، إنما المقصود هي العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان[129].

والعبر من قصة ذي القرنين كثيرة منها: (النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغُنّم المادي، واستغلال الأفراد، والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخّر أهلها في أغراضه وأطعامه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأُ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسَّر الله في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، ثم يُرجِعُ كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وإنه راجع إلى الله..)[130].

الخطاب العاشر: الأخسرون أعمالا، من هم؟

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[131].

هنا يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، قل للمشركين: أتدرون من هم الأخسرون أعمالا، وقد خاطبهم الله بمنطق الربح والخسارة، لأنهم في الحياة الدنيا يبتغون الربح[132]، وشرع يوضح لهم تلك الأصناف التي خسرت عملها، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[133] تقول الآيات الكريمة مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، أن الخاسرين في الآخرة، هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ومن يا ترى هؤلاء القوم؟

إن هؤلاء القوم هم: الذين كفروا بآيات ربهم: أي حين جاءهم الحق وأمروا أن يؤمنوا به، أعرضوا عن الإيمان ولم يذعنوا إلى الحق، وهم بعد ذلك أنكروا اليوم الآخر، ولم يؤمنوا به، فقد كفروا بآيات الله تعالى كما كفروا بيوم القيامة، وإن من شأن هؤلاء القوم الاستخفاف برسل الله تعالى، هؤلاء القوم –يا محمد– ﷺ حبطت أعمالهم، فما عادت لهم أعمال يؤجرون عليها، وهم لا يزنون عند الله تعالى شيئاً يوم القيامة[134].

وفي الآيات دلالة على أن من الناس من يعمل العمل، وهو يظن أنه محسن، وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي: إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد بالآية هنا الكفر[135]. ولما كان الجزاء من جنس العمل فإنهم لا يقام لهم يوم القيامة وزنٌ، لحقارتهم وخستهم[136]، ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، أقرءوا إن شئتم ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**][137].

الخطاب الحادي عشر: علم الله تعالى المحيط بكل شيء

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[138].

فالله جل جلاله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: قل يا محمد ﷺ: لو كان البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه، وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابه ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جراً، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ

أَبحرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[139]، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم، في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة، كحبة من خردل، في خلال الأرض كلها[140].

فمراد الله وحكمته، لا يحدهما شيء، فالمعين الأول على النجاة والعصمة من الفتن هو هذا الكتاب، ولذا بدأت به سورة وبه ختمت[141].

الخطاب الثاني عشر: القدوة لرسول الله طريقها (الإخلاص لله، وصواب العمل)

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[142].

قل يا أيها النبي: إنما أنا مجرد بشر مثلكم، ولكن خصني الله بالوحي والرسالة، ومن هذا الوحي المأمور به أن الإله المعبود إله واحد لا شريك له في ألوهيته فمن كان يأمل، ويطمع بلقاء الله بالبعث والجزاء، وهو شأن المؤمنين، فليعمل عملاً صالحاً في الدنيا، ولا يشرك أحد من الخلق بعبادة الله ربه[143].

وفي الآية تحد للمشركين والمكذبين للرسول ﷺ (فمن زعم إني كاذب، فليأت بمثل ما جئتُ به فإني لا أعلم الغيب، فما كنت لأخبركم عما سألتم عن قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، فأنا بشر، ولكن الله خصني بالرسالة، وأكرمني بالوحي، وشرفني بالدعوة لدينه (يوحى إلي)، وكلفكم بإتباعي من أجله ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا محور ما أدعو إليه، وما أوحي إلي ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: فمن كان يأمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول... ﴿فَلْيَعْمَلْ

﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي عملاً موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ بألا يريد بعبادته إلا وجه الله وحده لا شريك له)[144].

والملاحظ: إن افتتاحية السورة توجيه الحمد المطلق لله، وذلك لأنه أنزل الكتاب العظيم على محمد عبده ورسوله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وختمت بتخصيص الله جل جلاله بالعبادة والذكر والشكر وسائر الأعمال الصالحة، فتكون السورة قد افتتحت بذكر الألوهية واختتمت بالربوبية.

وجاء في افتتاحية السورة حقيقة الرسول أنه من البشر، ومن عباد الله، إلا أنه يمتاز عنهم بتلك الصلة بالملأ الأعلى عن طريق الوحي ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وجاء ذكر حقيقة الرسول وكونه من البشر لا يتميز عن غيره بشيء سوى الوحي، جاء صريحاً في خاتمة السورة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾. والوحي المنزل من الله ﷻ جاء التعبير عنه في افتتاحية السورة بصيغة ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، وجاء التعبير عنه في خاتمة السورة بصيغة ﴿كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ والكتاب الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ جزء من الكلمات التي لا تحصى[145].

الخاتمة

1. سورة الكهف تحدثت عن الفتن الأساسية في حياة الناس (فتنة الدين، فتنة المال، فتنة العلم، فتنة السلطة)، وأعطت للمسلم الترياق للعصمة من هذه الفتن، ولذا جاء الحديث الشريف، أنها تنجي من أعظم فتنة في تاريخ البشرية من لدن أدم إلى قيام الساعة، وهي فتنة الدجال، لأن الدجال سيظهر قبل يوم القيامة بالفتن الأربعة، ولذا على المسلم في كل زمان ومكان أن ينتبه منها، وذلك بقراءة سورة الكهف والتدبر في معانيها، فهدف السورة العصمة من الفتن.
2. ذكرت السورة قوارب النجاة للخروج من الفتن، وأوضحت ذلك في محاور السورة، منها: (الصعبة الصالحة، عدم التعلق بالدنيا وزخرفها، التذكرة بالآخرة، التواضع والإخلاص لله، التمسك بالقرآن الكريم وتدبره).
3. أبرزت السورة الصراع بين الإيمان والمادية، الصراع بين القلة المؤمنة الضعيفة، والكثرة (المنافقة) القوية، وأن الصراع مهما طال فلابد للحق أن يظهر ويعلو على الباطل والمادية.
4. تعاون الكفار فيما بينهم، وتنسيقهم مواقفهم لمحاربة دعوة الحق، والوقوف في وجهها كما حصل من قريش، واليهود، في توجيه الأسئلة لرسول الله ﷺ.
5. إن القصص القرآني لا يراد لذاته، وإنما هو وسيلة ناجحة إلى غايات سامية وأهداف مقصودة، فالقرآن يدعونا إلى نلحظ الهدف والغاية من القصة، وأن نفقه ذلك ونقف عليه ونتدبره، ونحسن التعامل معه.
6. عدم تحديد مبهمات القرآن عن أشخاص، وأزمان، وأمكنة أحداث القصص السابقة.
7. ضرب الأمثال في القرآن يقرب المعاني النظرية إلى النفس الإنسانية، ويرسخ المعاني التي ضربت من أجلها الأمثال.
8. نلحظ أن السورة في مقاطعها ومجموعاتها، تخاطب الرسول ﷺ ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾، ﴿وَاتْلُ﴾، ﴿وَاصْبِرْ﴾، ﴿وَقُلْ﴾، ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، ﴿وَاضْرِبْ﴾، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾، فالسورة تسري عن رسول الله ﷺ، وتوجهه لما ينبغي فعله أمام المواقف الكافرة.
9. نهى الله ﷻ رسوله في السورة عن ثلاثة أشياء:

أ- نهاه عن المراء والجدل دون دليل ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾.

ب- نهاه عن استفتاء وسؤال أحد من أهل الكتاب، أو غيرهم لأنه ليس عندهم علم يقيني بشأنه ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

ج- نهاه عن أن يعد وعداً بشيء في المستقبل إلا بعد أن يستثني ويعلقه بمشيئة الله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ .

10. إن قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه نوع من الاعتذار لرسول الله ﷺ، إثبات النسيان لرسول الله ﷺ، وإن النسيان قد يصيب رسول الله، وقد أخبر تعالى عن رسل أصابهم النسيان (آدم، وموسى، وسليمان) ومن المعلوم أن الله لا يؤاخذ الناس سواء كان رسولاً، أو مسلماً صالحاً، ولهذا أعلم الله المؤمنين أن يدعو قائلين ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

11. العلم المبني على تعاليم الوحي يوصل إلى القيم الثابتة، وينهج المنهج الذي يوصله إلى النتائج الصحيحة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خاتم

الأنبياء والمرسلين

محمد ﷺ

الهوامش

[1] ينظر: جمال القراء وكمال الإقراء 206/1، تفسير روح المعاني للآلوسي 199/15.

[2] في ظلال القرآن 2257/4.

[3] صحيح البخاري، كتاب التفسير 223/5، قال ابن الأثير: أراد بالعتاق الأول: السور التي أنزلت بمكة وإنها من أول ما تعلمه من القرآن، النهاية في غريب الحديث 179/3، وهن من تلادي: أي من أول ما تعلمته بمكة وأخذته فيها. النهاية 194/1.

[4] ذكر في بعض الروايات أن الرجل كان أسيد بن الحضير ﷺ .

[5] صحيح البخاري 104/6، صحيح مسلم 193/2.

[6] صحيح مسلم 199/2.

[7] مسند الإمام احمد 439/3.

[8] المستدرك للحاكم 268/2.

[9] دراسات قرآنية 149.

[10] ينظر: تفسير الطبري 128/15، السيرة النبوية 39/2، لباب التقول 155.

[11] سورة الإسراء، الآية 85 .

[12] ينظر: تفسير الطبري 128/15، السيرة النبوية لابن هشام 39/2، لباب النقول 155.

[13] التفسير المنير 213.

[14] تفسير الشعراوي 8832/14.

[15] سورة الكهف، الآية 5.

[16] نظم الدرر 9/12.

[17] ينظر في ظلال القرآن 2260/4.

[18] ينظر: مع قصص السابقين في القرآن 281.

[19] سورة الكهف، الآية 13-14.

[20] تفسير القرآن العظيم 101/3-102.

[21] سورة الكهف، الآية 14.

[22] تفسير القرآن العظيم 102/3.

[23] سورة مريم، الآية 48.

[24] ينظر: في ظلال القرآن 2262/4.

[25] زهرة التفاسير 450/9، وينظر التفسير المنير 238/8، تفسير الشعراوي 8852/4.

[26] تفسير القرآن الكريم (سورة الكهف) لابن العثيمين 26.

[27] ينظر: نظم الدرر 211/12.

[28] ينظر: دراسات قرآنية 24، مع قصص السابقين في القرآن 294.

[29] سورة الذاريات، الآية 56.

[30] سورة الكهف، الآية 2-3.

[31] ينظر: تفسير القرآن العظيم 98/3، وتفسير القرآن الكريم (لابن عثيمين) 4.

[32] ينظر: تفسير التحرير والتنوير 250/13، تفسير الشعراوي 8835/14.

[33] نظم الدرر 70/12 وينظر التفسير المنير 374/8،221، زهرة التفاسير 2598/9.

[34] سورة الكهف، الآية 2.

[35] سورة الكهف، الآية 4-5.

[36] سورة الكهف، الآية 29.

[37] سورة الكهف، الآية 49.

[38] ينظر: تفسير القرآن العظيم 120/3، في ظلال القرآن 2274/4، تفسير التحرير والتنوير 338/13.

[39] سورة الكهف، الآية 47-48.

[40] مشاهد القيامة 160. وينظر: نظم الدرر 71/12، التفسير المنير: 289/8، تفسير التحرير والتنوير 335/15، تفسير الشعراوي 8929/14.

[41] سورة الكهف، 52-53.

[42] ينظر: تفسير القرآن العظيم 123/3-124، تفسير التحرير والتنوير 344/15، التفسير المنير 299/8، مشاهد القيامة 160.

[43] ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي 178، وينظر للمزيد: محنة الفئة المؤمنة في القرآن الكريم 34-222، أطروحة دكتوراه.

(44) سورة الأعراف، الآية 158.

(45) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل 612.

(46) سورة فاطر، الآية 3.

(47) سورة فاطر، الآية 5-6.

(48) سورة فاطر، الآية 15-17.

(49) ينظر مثلاً: يونس، 23، 57، 104، 108، لقمان 22، الانفطار 6-8، الانشقاق 6-15.

(50) قواعد التدبر الأمثل 618.

(51) سورة البقرة، الآية 153.

(52) سورة البقرة، الآية 172.

(53) للتوسع في أحكام هذه الآية ينظر الجامع لأحكام القرآن 202/2-219.

(54) سورة البقرة، الآية 178 .

(55) للتوسع في أحكام هذه الآية ينظر: الجامع لأحكام القرآن 228/2-239.

(56) قواعد التدبر الأمثل 622.

(57) ينظر: قواعد التدبر الأمثل 622.

(58) سورة الكهف، الآية 6.

(59) سورة الكهف، الآيتان 23-24.

(60) سورة طه، الآيتان 2-3.

(61) سورة التوبة 55.

(62) سورة الإسراء 20.

(63) قواعد التدبر الأمثل 625، وينظر: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم 86-88.

(64) سورة الكهف، الآية 6، بخع: قتل النفس غما ينظر: مفردات ألفاظ القرآن مادة (بخع) 110، تفسير البحر المحيط 132/7، أساس البلاغة 16.

(65) سورة فاطر، الآية 8.

(66) سورة الحجر، الآية 88.

[67] سورة الشعراء، الآية 3.

[68] ينظر: تفسير الكشاف 677/2، تفسير البحر المحيط 138/7، تفسير القرآن العظيم 99/3.

[69] ينظر: تفسير القرآن العظيم 99/3-100.

[70] زهرة التفاسير 4489/9.

[71] تفسير التحرير والتنوير 254/15.

[72] نظم الدرر 13/15.

[73] سورة القصص، الآية 56.

[74] سورة الكهف، الآية 9.

[75] ينظر تفسير الطبري 128/15، السيرة النبوية لابن هشام 39/2، لباب التقول 155، نظم الدرر 13/151.

[76] ينظر: زهرة التفاسير 8847/14، وينظر تفسير البحر المحيط 141/7.

[77] خواطر قرآنية 219.

[78] دراسات قرآنية 26.

[79] ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي 176.

[80] التفسير المنير 237/8.

[81] سورة الكهف، الآية 13-14.

[82] ينظر: مع قصص السابقين في القرآن 291.

[83] سورة الكهف، الآية 12.

[84] تفسير التحرير والتنوير 271/15.

[85] زهرة التفاسير 4449/9.

[86] سورة الكهف، الآية 18.

[87] تفسير الشعراوي 8860/14.

[88] سورة الكهف، الآية 22.

[89] زهرة التفاسير 4515/9.

[90] سورة النحل، الآية125.

[91] ينظر: تفسير القرآن العظيم 108/3.

[92] في ظلال القرآن 2265/4.

[93] تفسير التحرير والتنوير 284/15.

[94] تفسير الشعراوي 8867/14.

[95] الكهف، الآية 23-24.

[96] ينظر: تفسير الطبري 128/15، السيرة النبوية 39/2، لباب التقول 155، تفسير القرآن العظيم 99/3.

[97] زهرة التفاسير 4516/9.

[98] ينظر الجامع لأحكام القرآن 345/5-346، التفسير المنير 256/8.

[99] تفسير التحرير والتنوير 296/15.

[100] تفسير الشعراوي 8869/14.

[101] تفسير روح المعاني 315/15.

[102] عتاب الرسول ﷺ في القرآن- تحليل وتوجيه 98.

[103] ينظر: الكشاف 686/2-687.

[104] ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي 212-213.

[105] سورة الكهف، الآية 27.

[106] ينظر: تفسير الطبري 269/15، تفسير القرآن العظيم 110/3.

[107] الجامع لأحكام القرآن 348/10.

[108] سورة المزمل، الآية 4.

[109] صحيح البخاري 1925/4، حديث رقم (4761)، صحيح مسلم (456/1، حديث رقم (793).

[110] صحيح البخاري 1927/4 حديث رقم (4769)، صحيح مسلم (551/1، حديث رقم (800)، سنن أبي داود (348/2)، حديث رقم (3668).

[111] صحيح مسلم 2074/4، حديث رقم (2699)، سنن أبي داود 460/1 حديث رقم (1455)، سنن ابن ماجه 82/1 حديث رقم (225).

[112] صحيح البخاري 2742/6، صحيح مسلم: 549/1 حديث رقم (798)، سنن أبي داود 460/1 حديث رقم (1454)، سنن ابن ماجه 1242/2 حديث رقم (13779).

[113] سورة الكهف، الآية 28.

[114] ينظر: تفسير الوجيز 297، تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان 653.

[115] ينظر: تفسير القرآن العظيم 110/3، التفسير الكبير 115/21.

[116] سورة الكهف، الآية 29.

[117] سورة الكهف، الآية 32.

[118] ينظر: الجامع لأحكام القرآن 356/1-357، اللباب في علوم الكتاب 483/12.

[119] سورة الكهف، الآية 35-36.

[120] سورة الكهف، الآية 42.

[121] التفسير الوجيز 299.

[122] ينظر: الأساس في التفسير 3186/6.

[123] سورة الكهف، الآية 45.

[124] ينظر: تفسير القرآن العظيم 116/3، اللباب في علوم الكتاب 499/12.

[125] ينظر: تيسير الكريم الرحمن 657-658.

[126] سورة الكهف، الآية 83-84.

[127] ينظر: تيسير الكريم الرحمن 667، التفسير الوجيز 303، خواطر قرآنية 221.

[128] ينظر في ذلك: الجامع لأحكام القرآن 417/10-420، اللباب في علوم الكتاب 553/12-563، الأساس في التفسير 3221/6-3223، ذي القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح 15-258، مع قصص السابقين 451-471 .

[129] ينظر: في ظلال القرآن 22/4-89 .

[130] في ظلال القرآن 2293/4، والتوسع في العبر والأحكام المستنبطة عن ذي القرنين، ينظر: تفسير القاسمي 4104/11-4106، ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح

281–283، مع قصص السابقين 515–547، الأساس في التفسير 4227/6–4230، مباحث في التفسير الموضوعي 324.

(131) سورة الكهف، الآية 103–105.

(132) ينظر الأساس في التفسير 3236/6.

(133) سورة الكهف، الآية 105–106.

(134) ينظر التفسير الوجيز 305.

(135) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 435/10.

(136) ينظر: تفسير الكريم الرحمن 671.

(137) صحيح البخاري في كتاب التفسير، حديث رقم (4729)، وصحيح مسلم، حديث رقم (2785)، وينظر الجامع لأحكام القرآن 436/10.

(138) سورة الكهف، الآية 109.

(139) سورة لقمان، الآية 27.

(140) تفسير القرآن العظيم.147/3، وينظر: تيسير الكريم الرحمن 672

(141) ينظر: خواطر قرآنية 227.

(142) سورة الكهف، الآية 110.

(143) ينظر: التفسير الوجيز 306.

(144) الأساس في التفسير 3238/6.

(145) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي 180–186، الأساس في التفسير 3238/6، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع 140.

المصادر والمراجع

1- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1982م.
2- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر، بالقاهرة، ط1، 1405هـ/1985م.
3- تفسير البحر المحيط، أثير الدين أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، عناية زهير جعيد، دار الفكر، بيروت 1412هـ/.1992
4- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس.
5- تفسير روح المعاني، أبو الفضل شهاب الدين محمدود الأندلسي، إدارة المطبعة المنيرية.
6- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة بالقاهرة.
7- تفسير الطبري، المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، راجع أحاديثه: احمد محمد شاكر، دار المعرفة، بمصر، 1957م.
8- تفسير القاسمي، المسمى (محاسن التأويل)، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط2، 1398هـ/1978م.
9- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، تقديم عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن باديس بالجزائر، ط2، 1418/.1998
10- تفسير القرآن الكريم، (تفسير سورة الكهف)، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي- السعودية، الطبعة الأولى 1423هـ.
11- التفسير الكبير، الإمام فخر الرازي، دار الكتب العلمية بطهران، ط.2
12- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله الزمخشري، ترتيب محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، 1415/.1995
13- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د.وهبة الزحيلي، دار الفكر بدمشق، ط2، 1424/2003م.
14- التفسير الوجيز، د.وهبة الزحيلي، دار الفكر،دمشق، ط2، 1425هـ.

15- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت، 2004/1425م.
16- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن احمد القرطبي، تخريج عرفان العشا، دار الفكر، بيروت، 1998/1419م.
17- جمال القُراء وكمال الاقراء، لعلم الدين السخاوي، تحقيق: علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى 1987/1408.
18- خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، د.عبد الصمد عبد الله، مكتبة الزهراء، بالقاهرة، ط1، 1998./1418
19- خواطر قرآنية،عمروخالد، الدار العربية للعلوم، ببيروت،ط1، 2004./1425
20- دراسات قرآنية، للعلامة أبي الحسن على الحسني الندوي، إعداد سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير بدمشق، ط1، 2002/1423م.
21- ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير رمضان يوسف، دار القلم بدمشق، والدار الشامية بدمشق، الطبعة الثالثة 1420-1999.
22- زهرة التفاسير، للعلامة محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي بالقاهرة.
23- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، أبو داود السجستاني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
24- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
25- سنن النسائي: احمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1986./1406
26- السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة (د.ت).
27- صحيح البخاري، للإمام أبو عبد الله البخاري، تقديم احمد محمد شاكر، دار الجيل.
28- صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث بمصر.

29-عتاب الرسول في القرآن، تحليل وتوجيه، د.صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم بدمشق، ط1، 1425/2004.

30- في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق- بيروت، القاهرة، ط11، 1405/1985م.

31- قواعد التدبر الأمثل كتاب الله عز وجل، تأملات، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم بدمشق، ط1، 1425/2004.

32- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق عادل احمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419/1998.

33- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبعة الملاح، بيروت.

34- مباحث في التفسير الموضوعي، د.مصطفى مسلم، دار القلم بدمشق، ط3، 1421/2000م.

35- محنة الفئة المؤمنة في القرآن الكريم، (أطروحة دكتوراه)، عبد الرحيم نجم الدين، بإشراف د.رشيد عبد الرحمن العبيدي، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، 1427/2006م.

36- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد بن عمر بازمول، المكتبة المكية بمكة المكرمة، ط1، 1423/2002م.

37- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ.

38- المسند، (مسند الإمام احمد)، احمد بن محمد بن حنبل، المطبعة الميمنية بالقاهرة، ط1، 1313/1895.

39- مشاهد القيامة، سيد قطب، دار الشروق (د.ت).

40- مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم، دمشق، ط4، 1425/2004م.

41- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم بدمشق، ط1، 1996/1416م.
42- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المشهور بـــ(تفسير البقاعي)، برهان الدين أبو الحسن إبراهم البقاعي، نشرته الدار السلفية بالهند، 1970./1390
43- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، دار إحياء التراث العربي.